

خطبة بعنوان: حب الوطن والتضحية من أجله

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: حب الوطن والحنين إليه غريزة فطرية

العنصر الثاني: أنواع التضحية في مجالات الحياة

العنصر الثالث: واجبنا نحو التضحية من أجل الوطن

العنصر الرابع: من أنواع الشهداء (الشهادة في سبيل الوطن)

المقدمة: أما بعد:

العنصر الأول: حب الوطن والحنين إليه غريزة فطرية

عباد الله: إن حب الوطن غريزة فطرية في الإنسان، وما من إنسان إلا ويعتز بوطنه؛ لأنه مهد صباه ومدرج خطاه ومرتع طفولته، وملجأ كهولته، ومنبع ذكرياته، وموطن آبائه وأجداده، ومأوى أبنائه وأحفاده، حتى الحيوانات لا ترضى بغير وطنها بديلاً، ومن أجله تضحي بكل غالٍ ونفيس، والطيور تعيش في عشها في سعادة ولا ترضى بغيره ولو كان من حرير، والسماك يقطع آلاف الأميال متنقلاً عبر البحار والمحيطات ثم يعود إلى وطنه، وهذه النملة الصغيرة تخرج من بيتها ووطنها فتقطع الفيافي والقفار وتصعد على الصخور وتمشي على الرمال تبحث عن رزقها، ثم تعود إلى بيتها، بل إن بعض المخلوقات إذا تم نقلها عن موطنها الأصلي فإنها تموت، ولذا يقول الأصمعي: " ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوانات: الإبل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدا بها بعيداً، والطيور إلى وكره وإن كان موضعه مجدباً، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر نفعاً". وقد روي في ذلك أن مالك بن فهم خرج من السراة (بلدة بالحجاز) يريد عمان، قد توسط الطريق، حنت إبله إلى مراعيها، وقبلت تلتفت إلى نحو السراة وتردد الحنين؛ فقال مالك في ذلك:

نحن إلى أوطانها إبل مالك ... ومن دونها عرض الفلا والدكادك

وفي كل أرض للفتى متقلب ... ولست بدار الذل طوعاً برامك

ستغنيك عن أرض الحجاز مشارب ... رحاب النواحي واضحات المسالك

فإذا كانت هذه سنة الله في المخلوقات فقد جعلها الله في فطرة الإنسان، وإلا فما الذي يجعل الإنسان الذي يعيش في المناطق شديدة الحرارة، والتي قد تصل إلى ستين درجة فوق الصفر، وذلك الذي يعيش في القطب المتجمد الشمالي تحت البرد القارس، أو ذلك الذي يعيش في الغابات والأدغال يعاني من مخاطر الحياة كل يوم، ما الذي جعلهم يتحملون كل ذلك إلا حبهم لوطنهم وديارهم!!

لذلك كان من حق الوطن علينا أن نحبه؛ وهذا ما أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يترك مكة تاركاً مؤمناً؛ فعن عبد الله بن عدي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة يقول: " وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَيِّزُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ " (الترمذي وحسنه)؛ فما أروعها من كلمات! كلمات قالها الحبيب صلى الله عليه وسلم وهو يودع وطنه، إنها تكشف عن حب عميق، وانتماء صادق؛ وتعلق كبير بالوطن، بمكة المكرمة، بجلها وحرماها، بجبالها ووديانها، برملمها وصخورها، بمائها وهوائها، هواؤها عليل ولو كان محملاً بالغبار، وماؤها زلال ولو خالطه الأكدار، وتربتها دواء ولو كانت قفاراً.

إنها الأرض التي ولد فيها، ونشأ فيها، وشب فيها، وتزوج فيها، فيها ذكريات لا تنسى، فالوطن ذاكرة الإنسان، فيها الأحباب والأصحاب، فيها الآباء والأجداد. قال الغزالي: "والبشر يألفون أرضهم على ما بها، ولو كانت قفراً مستوحشاً، وحب الوطن غريزة متأصلة في النفوس، تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه، ويحنُّ إليه إذا غاب عنه، ويدافع عنه إذا هوجم، ويغضب له إذا انتقص".

وها هو الخليل ابراهيم عليه السلام حين ترك زوجته هاجر وابنه اسماعيل عليه السلام في مكة المكرمة وهى واد قاحل غير ذى زرع دعا ربه أن يبسر لهم أسباب الاستقرار ووسائل عمارة الديار ؛ فَقَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} (إبراهيم: 37) وهذا كليم الله موسى عليه السلام حنّ إلى وطنه بعد أن خرج منها مجبراً؛ قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}. (القصص: 29)؛ قال ابن العربي في أحكام القرآن: " قال علماؤنا: لما قضى موسى الأجل طلب الرجوع إلى أهله وحنّ إلى وطنه وفي الرجوع إلى الأوطان تقتحم الأغرار وتركب الأخطار وتعلل الخواطر. ويقول: لما طالت المدة لعله قد نسيت التهمة وبليت القصة".

وها هو رسولنا صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري: لما أخبر ورقة بن نوفل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قومه . وهم قريش . مخرجوه من مكة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَوْمُحْرَجِيَّ هَمْ!؟) قال: نعم، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً. قال السهيلي رحمه الله: "يؤخذ منه شدة مفارقة الوطن على النفس؛ فإنه صلى الله عليه وسلم سمع قول ورقة أنهم يؤذونه ويكذبونه فلم يظهر منه انزعاج لذلك، فلما ذكر له الإخراج تحركت نفسه لحبّ الوطن وإفقه، فقال: (أَوْمُحْرَجِيَّ هَمْ!؟) قال الحافظ الذهبي : وهو من العلماء المدققين - مُعَدِّدًا طائفةً من محبوبات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " وكان يحبُّ عائشةَ، ويحبُّ أباهَا، ويحبُّ أسامةَ، ويحبُّ سبطيَّه، ويحبُّ الحلواء والعسل، ويحبُّ جبل أُحُدٍ، ويحبُّ وطنه".

ولتعلق النبي - صلى الله عليه وسلم - بوطنه الذي نشأ وترعرع فيه ووفائه له وانتمائه إليه؛ دعا ربه لما وصل المدينة أن يغرس فيه حبها فقال: " اللهم حبِّبْ إلينا المدينةَ كَحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ". (البخاري ومسلم).

وقد استجاب الله دعاءه، فكان يحبُّ المدينة حبًّا عظيمًا، وكان يُسرُّ عندما يرى معالمها التي تدلُّ على قرب وصوله إليها؛ فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: "كان رسول الله إذا قدم من سفرٍ، فأبصر درجات المدينة، أوضع ناقته - أي: أسرع بها - وإن كانت دابة حركها"، قال أبو عبدالله: زاد الحارث بن عمير عن حميد: "حركها من حبِّها". (البخاري).

ومع كل هذا الحب للمدينة لم يستطع أن ينسى حب مكة لحظة واحدة؛ لأن نفسه وعقله وخاطره في شغل دائم وتفكير مستمر في حبها؛ فقد أخرج الأزرقى في "أخبار مكة" عن ابن شهاب قال: قدم أصيل الغفاري قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، فدخل على عائشة -رضي الله عنها- فقالت له: يا أصيل: كيف عهدت مكة؟! قال: عهدتها قد أخصب جناهما، وبيضت بطحاؤها، قالت: أقم حتى يأتيك النبي، فلم يلبث أن دخل النبي، فقال له: "يا أصيل: كيف عهدت مكة؟!"، قال: والله عهدتها قد أخصب جناهما، وبيضت بطحاؤها، وأعدق إذخرها، وأسلت ثمامها، فقال: "حسبك -يا أصيل- لا تحزننا". وفي رواية أخرى قال: "وبها يا أصيل! دع القلوب تقرر قرارها".

أرأيت كيف عبر النبي الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- عن حبه وهيامه وحنينه إلى وطنه بقوله: "يا أصيل: دع القلوب تقرر"، فإن ذكر بلده الحبيب -الذي ولد فيه، ونشأ تحت سماءه وفوق أرضه، وبلغ أشده وأكرم بالنبوة في رحابه- أمامه يثير لواعج شوقه، ويذكي جمره حنينه إلى موطنه الحبيب الأثير العزيز!!

أرأيت كيف أن الصحابة المهاجرين -رضوان الله عليهم أجمعين- كانوا يحاولون تخفيف حدة شوقهم وإطفاء لظى حنينهم إلى وطنهم بالأبيات الرقيقة المرققة التي تذكروهم بمعالم وطنهم من الوديان والموارد والجبال! ولما كان الخروج من الوطن قاسياً على النفس، صعباً عليها، فقد كان من فضائل المهاجرين أنهم ضحوا بأوطانهم في سبيل الله، فللمهاجرين على الأنصار أفضلية ترك الوطن، ما يدل على أن ترك الوطن ليس بالأمر السهل على النفس، وقد مدحهم الله سبحانه على ذلك فقال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}. [الحشر: 8].

أيها المسلمون: إن تراب الوطن الذي نعيش عليه له الفضل علينا في جميع مجالات حياتنا الاقتصادية والصناعية والزراعية والتجارية؛ بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يستخدم تراب وطنه في الرقية والعلاج؛ فعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في الرقية: " باسم الله، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، وَرِيقَةُ بَعْضِنَا، يَشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا". (البخاري ومسلم).

والشفاء في شم المحبوب، ومن ألوان الدواء لقاء المحب محبوبه أو أثرًا من آثاره!! ألم يُشَفَّ يعقوبُ ويعود إليه بصره عندما ألقوا عليه قميص يوسف؟! قال الجاحظ: " كانت العرب إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلةٍ أو زكام أو صداع." (الرسائل). وهكذا يظهر لنا بجلاء فضيلة وأهمية حب الوطن والانتماء والحنين إليه في الإسلام.

العنصر الثاني: أنواع التضحية في مجالات الحياة

عباد الله: قبل أن نتكلم عن أنواع التضحية نقف سريعاً حول معنى تضحية كما في «معجم المعاني الجامع»: **التَّضْحِيَةُ** بِالنَّفْسِ: بَدْهُا فِي سَبِيلِ قَضِيَّةٍ أَوْ فِكْرَةٍ أَوْ مِنْ أَجْلِ الْآخِرِينَ مِنْ دُونَ مُقَابِلٍ، كَمَا تَكُونُ التَّضْحِيَةُ بِالْمَالِ أَوْ الْعَمَلِ أَوْ الْمَصْلَحَةِ.

إن مفهوم التضحية يختلف من شخص لآخر، فعالم النفس «أدلر» يرى أن: «التضحية سلوك ينبع من أسلوب الحياة، حيث تبلغ الذات فيه أعلى مراتب الإنسانية، لتكون ذاتاً فعالة خلاقة لأن تتخطى عقبات الحياة وظروفها».

فمفهوم التضحية وبذل الغالي الرخيص يختلف من شخص لآخر تبعاً لما يعتقد الإنسان ويتعلق به؛ فتجد أن الإنسان إذا أحب شيئاً ما فإنه يضحى من أجله؛ وبالمثال يتضح المقال.

فهذا عروة بن الزبير لما تعلق حب الله في قلبه ضحي ساقه وهو ساجد حتى لا يغفل قلبه عن ذكر الله لحظة؛ فالحب يهيم في محبوبه حتى لا يكاد يرى غيره؛ يروى أن قيس بن الملوح مجنون ليلى تابع كلب ليلى ليدله ، فمر على قوم يصلون ، وعندما عاد ماراً بهم قالوا له : ترانا نصلي ولا تصلي معنا؟! قال : كنتم تصلون؟! قالوا : نعم ، فقال : والله ما رأيتمكم !. ولو كنتم تحبون الله كما أحب ليلى ما رأيتموني !. فهذا مشغوف بحب ليلى حتى حجبها عن رؤية المصلين!!!

وأنت ترى أن الصحابة كانوا دائماً يضحون بأرواحهم فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وهذا نابغ من حبههم له.

ففي طريق الهجرة كما ذكر ابن القيم في زاد المعاد، والبيهقي في الدلائل: ” أن أبا بكر ليلة انطلق مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الغار، كان يمشي بين يديه ساعة، ومن خلفه ساعة، فسأله، فقال: أذكر الطلب (ما يأتي من الخلف) فأمشي خلفك، وأذكر الرصد (المترصدين في الطريق) فأمشي أمامك، فقال صلى الله عليه وسلم: (لو كان شيء أحببت أن تُقتل دونه؟)، قال: أي والذي بعثك بالحق، فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار، فاستبرأه “ .

وهذا زيد بن الدثنة قال له أبو سفيان حين قُدمَ ليقتل: ” أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً! ” (السيرة النبوية لابن كثير).

وهذا أبو طلحة الذي يذب عن رسول الله يوم أحد؛ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ أَهْرَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَأَبُو طَلْحَةَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُجَوَّبٌ عَلَيْهِ بِحَجَفَةٍ لَهُ؛ وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَجُلًا رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْعِ؛ كَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؛ وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ بِجَعْبَةٍ مِنَ النَّبْلِ فَيَقُولُ انْتَرِهَا لِأَبِي طَلْحَةَ. قَالَ: وَيُشْرِفُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي لَا تُشْرِفُ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ تَحْرِي دُونَ تَحْرِكَ". (متفق عليه).

وهذا صهيب صاحب المال الوفير في مكة ضحى بماله من أجل الهجرة ورفع راية الإسلام؛ فعن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت لي قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك ! والله لا يكون ذلك أبداً . فقلت لهم : رأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني ؟ قالوا : نعم . فدفعتم إليهم مالي ، فخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة . فبلغ

ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ربح صهيب ، ربح صهيب " مرتين . فأُنزل الله فيه { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ } . (البقرة: 207). (تفسير ابن كثير)

وقد كان لكثير من أصحابه صلى الله عليه وسلم . رضي الله عنهم . صفحات طويلة من البذل والتضحيات .

فهذا علي . رضي الله عنه . يعرض نفسه للهلاك ويضحى بحياته بنومه في فراش النبي -صلى الله عليه وسلم- عشية الهجرة .

ويرمي البراء نفسه بين الأعداء في حديقة الموت فيفتح الله للمسلمين بسببه .

ويعرض أبو الدرداء عن التجارة تفرغاً لمجالسة النبي صلى الله عليه وسلم .

ويتقبل خالد بن الوليد التنازل عن منصبه طاعة لأمر المؤمنين .

ويتنازل أبو عبيدة عن إمرة الجيش لعمرو بن العاص جمعاً لكلمة المسلمين .

ويرفض الحسن بن علي الخلافة درءاً للفتنة وجمعاً للكلمة .

ويقتل عامر بن عبدالله رأس زعيم الروم المشرك ليعتق له أسرى المسلمين .

ولم يخلُ تاريخ النساء العظيم من روائع بالجود والتضحية؛ فقد ضحت أم سلمة بشمل الأسرة، وتحملت فراق الزوج والولد في سبيل الهجرة، ولا يخفى جهد أسماء وعناؤها أثناء الهجرة، ولا تضحياتها بابنها عبدالله بن الزبير في سبيل نصرته الحق .

أيها المسلمون: إذا كانت التضحية في كل ما سبق في الجانب الإيجابي؛ فكذلك تكون التضحية في الجانب السلبي؛ لأن صاحبه يعتقد فكرة أو حرفة أو جريمة يضحى بكل شيء من أجلها مع أنها باطلة ومحرمة؛ فأنت ترى أن السارق يضحى من أجل سرقة ولو أدى ذلك إلى حبسه وسجنه؛ وترى الزاني يضحى من أجل شهوته؛ وترى شارب الخمر يضحى بالغالي والرخيص من أجل سكره؛ وترى صاحب الأفكار المتطرفة الهدامة العفنة يضحى بنفسه وماله من أجل ترويح باطله؛ حتى ولو أدى ذلك بحياته؛ فالملخص لوطنه من يحمل أدوات البناء والتشييد، والمعادي له من يحمل معاول الهدم والتخريب، والمحِب لوطنه من ينشد الخير والسلام والأمن لبلده ومجتمعه.. وعكسه هو الذي يسعى لإذكاء الفتن وإشعال الحرائق ويمارس الإرهاب والجريمة المنظمة.. جميع هؤلاء يتغنون باسم الوطن ويدعون خدمته والعمل لصالحه، واختلطت على العامة المفاهيم والأعمال، وبات من الصعب في العديد من الحالات والظروف والأوضاع والاضطرابات السياسية والأمنية التمييز بين المصدقية والزيف في استخدام هذه الشعارات؛ وبين المواطن الصالح الناصح الباني لوطنه.. وذلك الكاذب المضلل المتاجر بقضايا وطنه وشعبه، بين من يدافع عن الوطن ومن يخونه؛ وهذا ما نعرفه بالتفصيل في عنصرنا التالي إن شاء الله تعالى .

العنصر الثالث: واجبنا نحو التضحية من أجل الوطن

عباد الله: إن المسلم الحقيقي يكون وقياً أعظم ما يكون الوفاء لوطنه، محبباً أشد ما يكون الحب له، مستعدداً للتضحية دائماً في سبيله بنفسه ونفيسه، ورخيصه وغاليه، فحبه لوطنه حب طبيعي مفطور عليه، حب أجل وأسمى من أن ترتقي إليه شبهة أو شك، حب تدعو إليه الفطرة، وترحب به العقيدة، وتؤيده السنة، وتجمع عليه خيار الأمة؛ فيا له من حب!

قيل لأعرابي: كيف تصنعون في البادية إذا اشتد القيظ (الحر) حين ينتعل كل شيء ظله؟! قال: "يمشي أحدنا ميلاً، فيرفض عرفاً، ثم ينصب عصاه، ويلقي عليها كساه، ويجلس في فيه يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى". أي حب هذا وهو يلاقي ما يلاقي!! إنه يقول: أنا في وطني بهذه الحالة مَلِكٌ مثل كسرى في إيوانه .

إن المواطنة الحققة قيم ومبادئ وإحساس ونصيحة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وعزة وموالة وتضحية وإيثار والتزام أخلاقي للفرد والأمة، إنها شعور بالشوق إلى الوطن حتى وإن كان لا يعيش الفرد في مرابعه كما قال شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه * نازعتني إليه بالخلد نفسي**

فأين هؤلاء الذين يدعون حب الوطن والوطنية ولا ترى في أعمالهم وسلوكياتهم وكلامهم غير الخيانة والعبث بمقدراته، والعمالة لأعدائه، وتأجيج الفتن والصراعات بين أبنائه، ونشر الرذيلة ومحاربة الفضيلة!!
أين الوفاء للأرض التي عاشوا فيها وأكلوا من خيراتها، وترعرعوا في رباه، واستظلوا تحت سماها، وكانت أرض الإيمان والتوحيد والعقيدة الصافية!!

عباد الله : يجب على كل مسلم أن يحب وطنه، ويتفانى في خدمته، ويضحى للدفاع عنه؛ فحب الوطن والدفاع عنه لا يحتاج لمساومة؛ ولا يحتاج لمزايدة؛ ولا يحتاج لشعارات رنانة؛ ولا يحتاج لآلاف الكلمات؛ أفعالنا تشير إلى حبننا، حركاتنا تدل عليه؛ حروفنا وكلماتنا تنساب إليه، أصواتنا تنطق به؛ آمالنا تتجه إليه، طموحاتنا ترتبط به، لأجل أرض وأوطان راقى الدماء؛ لأجل أرض وأوطان تشردت أمم، لأجل أرض وأوطان تحملت الشعوب ألواناً من العذاب؛ لأجل أن نكون منها وبها ولها؛ وإليها مطالبون أينما كنا أن نحافظ عليها!!
حب الوطن والتضحية من أجله هو واقع يستحق أن نعمل بحب وتفان من أجل المحافظة عليه لأنه أتمن ما في وجودنا وانتمائنا، فالوطن هو التاريخ والحضارة والتراث، وهو الذي سكن جسدنا وروحنا وذاكرتنا، ومن أجله وخاصة في هذه الفترة العصبية نحتاج إلى العمل من دون مقابل، لأن الوطن فوق كل شيء.

بِلَادِي هَوَاهَا فِي لِسَانِي وَفِي دَمِي يُمَجِّدُهَا قَلْبِي وَيَدْعُو لَهَا فَمِي

يروى أنه عندما تقدم نابليون نحو الأراضي الروسية بقصد احتلالها، صادف فلاحا يعمل بمنجله في أحد الحقول، فسأله عن أقرب الطرق المؤدية إلى إحدى البلدان بعد أن أعلن له عن شخصيته، فقال له الفلاح ساخرا: «ومن نابليون هذا؟! .. إنني لا أعرفه!». فقال نابليون غاضبا: «سوف أجعلك تعرف من أنا». ثم نادى أحد الضباط وأمره بأن يسخن قطعة من المعدن على هيئة حرف «N» الذي يبدأ به اسم نابليون حتى درجة الاحمرار ثم يلصقها بذراعه اليسرى. وبعد أن تم لنابليون ما أراد، هوى الفلاح بالمنجل على ذراعه من عند الرسغ وقطعها، وقال لنابليون والدم ينزف منه: «خير لي أن أموت أو أحيا بذراع واحدة من أن أعيش بجسم تلوث بالحرف الأول من اسمك.. إنني وما أملكك لبلادتي».

ذهل نابليون من رد فعل هذا الفلاح، فصاح في جنوده أن يحضروا الزيت، ويقوموا بغليه، ويغمروا البقية الباقية من يده فيه، لإيقاف النزيف، قائلا لهم: «حرام أن يموت رجل يملك هذه الشجاعة وهذه الوطنية»، لكنهم إلى أن أحضروا الزيت وقاموا بغليه كان الفلاح قد نرف دما كثيرا، وما هي إلا دقائق حتى لفظ أنفاسه.

وحزن نابليون عليه حزنا شديدا لدرجة أنه أمر بحفر قبر له يدفن فيه، ومكث في المكان نفسه عدة أيام، وقبل أن يغادر وضع قبعته الشخصية على القبر وتركها تكريما وتقديرا لذلك الفلاح الجريء؛ وأمر قواته بأن تتجاوز تلك القرية ولا تدخلها أبدا.

فأين نحن من تضحياتنا لوطننا؟ فالتضحية من أجل الوطن ليست مقتصرة على مواجهة العدو والموت في سبيل الوطن ورفع الشعارات؛ أين هؤلاء الذين يدعون حب الوطن والوطنية وهم من ذلك براء؟! ولا ترى في أعمالهم وسلوكياتهم وكلامهم غير الخيانة والعبث بمقدراته، والعمالة لأعدائه، وتأجيج الفتن والصراعات بين أبنائه، ونشر الرذيلة ومحاربة الفضيلة!!

أحبي في الله: إن واجبنا نحو التضحية من أجل وطننا أن يضحى كل فرد في المجتمع بحسب عمله ومسئوليته؛ فيضحى الطبيب من أجل حياة المريض؛ ويضحى المعلم من أجل تعليم وتنشئة الأولاد؛ ويضحى المهندس من أجل عمارة الوطن؛ ويضحى القاضي من أجل إقامة وتحقيق العدل؛ ويضحى الداعية من أجل نشر الوعي والفكر الصحيح بين أفراد المجتمع وتصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار المنحرفة؛ وتضحى الدولة من أجل كفالة الشعب ورعايته؛ ويضحى الأب من أجل معيشة كريمة لأولاده؛ ويضحى الجندي من أجل الدفاع عن وطنه؛ ويضحى العامل من أجل إتقان عمله؛ وتضحى الأم من أجل تربية أولادها.. إلخ... إننا فعلنا ذلك فإننا ننشد مجتمعنا فاضلا متعاوننا متكافلا تسوده روابط المحبة والإخلاص والبر والإحسان وجميع القيم الفاضلة.

العنصر الرابع: من أنواع الشهداء (الشهادة في سبيل الوطن)

كثير من الناس يعتقد أن الشهادة تقتصر على الموت في محاربة الكفار فقط ، ولكن شهداء أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - كثيرون، ففي الحديث المتفق عليه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ؛ وَالْمَبْطُونُ؛ وَالْعَرِيقُ؛ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ؛ وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ". وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَإِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ شَهِيدٌ، قَالَ: إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَنْ لَقَلِيلٌ: الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْءُ يَمُوتُ عَلَى فِرَاشِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَاللَّدِيعُ شَهِيدٌ، وَالْعَرِيقُ شَهِيدٌ، وَالشَّرِيقُ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَفْتَرِسُهُ السَّبْعُ شَهِيدٌ، وَالْحَارُّ عَن ذَابْتِهِ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالنَّفْسَاءُ يَفْتُلُّهَا وَلَدُهَا يَجْرُهَا بِسَرِّهِ إِلَى الْجَنَّةِ". (ابن حبان والطبراني واللفظ له) ؛ والمبطون كما يقول النووي : " هو صاحب داء البطن. وقيل: هو الذي يموت بداء بطنه مطلقًا. وقوله: المرأة تموت بجمع شهيد. أي تموت وفي بطنها ولد، لأنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل وهو الحمل". (شرح النووي)

هذا وخصال الشهادة أكثر من هذه السبع، قال الحافظ ابن حجر: " وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة.. وذكر منهم: اللديع، والشريق، والذي يفترسه السبع، والحار عن دابته، والمائد في البحر الذي يصيبه القيء، ومن تردى من رؤوس الجبال. قال النووي: وإنما كانت هذه الموتات شهادة يتفضل الله تعالى بسبب شدتها وكثرة المهام. قال ابن التين: هذه كلها ميتات فيها شدة تفضل الله على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأن جعلها تحصيلًا لذنوبهم وزيادة في أجورهم يبلغهم بها مراتب الشهداء". (فتح الباري). ويدخل في ذلك الدفاع عن الأهل والمال والوطن فعن سعيد بن زيد قال - صلى الله عليه وسلم - : "مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ" (الترمذي وحسنه)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخَذَ مَالِي ؟ قَالَ : فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ : قَاتَلَهُ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : فَأَنْتَ شَهِيدٌ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ : هُوَ فِي النَّارِ ". (مسلم)

ويدخل في ذلك أيضا الجنود المرابطون الذين يسهرون ليلهم في حراسة هذا الوطن والدفاع عنه وحماية منشآته؛ وقد ذكرهم الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: "عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ ؛ وَعَيْنٌ بَأَتْتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (الطبراني والبيهقي والترمذي وحسنه)

فكل من مات من أجل التضحية والدفاع عن الوطن فهو شهيد؛ وليعلم أن لئيل أجر الشهادة شروطاً، من هذه الشروط: الصبر والاحتساب وعدم الموانع كالغلول، والدِّين، وغضب حقوق الناس؛ أو من فجر نفسه. وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية: عن رجل ركب البحر للتجارة فغرق فهل مات شهيداً؟ أجاب: نعم مات شهيداً إذا لم يكن عاصياً بركوبه، وقال في موضع آخر: ومن أراد سلوك طريق يستوي فيها احتمال السلامة والهلاك وجب عليه الكف عن سلوكها، فإن لم يكف فيكون أعان على نفسه فلا يكون شهيداً. اهـ

فمن مات مضحياً ومدافعاً عن وطنه وهو صابر ومحتسب وموحد فإننا نرجو له الحصول على أجر الشهادة، فرحمة الله واسعة وفضله عظيم؛ فمدار الأمر على النية، فقد يكون في الظاهر في سبيل الدفاع عن الوطن وفي الباطن غرضه الدنيا أو منصب أو جاه أو غير ذلك. اللهم آمنا في أوطاننا وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا ، اللهم من أراد بلادنا بسوء فأشغله بنفسه ورد كيده في نحره واجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء، اللهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين من شر الأشرار وكيد الفجار وشر طوارق الليل والنهار .

وأقم الصلاة،،،،،

الدعاء.....

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي